



أنوار السُّنة المُحمديَّة شرح رياض الصالحين (٢) الإخلاص والنية (٢) الشيخ أحمد السيد.



الفهرس

٣	المقدمة:
٤	الحديث السابع: نظرة الله ﷻ لعباده.
٥	القلب:
٦	العمل:
٨	الحديث الثامن: القتال في سبيل الله ﷻ.
٩	الحديث التاسع: القتال بين المسلمين.
١٠	الحديث العاشر: صلاة الجماعة.
١٢	الحديث الحادي عشر: فضل الله ﷻ.
١٣	الحديث الثاني عشر: العمل ابتغاء رضا الله ﷻ.
١٤	فوائد:
١٦	اتباع النبي ﷺ:
١٨	الخاتمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا تبارك وتعالى ويرضى. الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه. اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد.

نستعين بالله ونستفتح المجلس الثاني من مجالس شرح كتاب رياض الصالحين للإمام النووي - رحمه الله تعالى -، وقد سبق أن قدمْتُ في المجلس الأول عن سبب اختيار هذه المادة، وسبب اختيار هذا الكتاب للدروس، وهو سبب متعلقٌ باستفادتي الشخصية، ويمدّ احتياج الإنسان الدائم للاتصال بهدي المصطفى ﷺ وبأحاديثه؛ فهو شفاء ودواء.

وليست القضية أننا نتعامل مع أحاديث النبي ﷺ أنها دروس مثلاً نتعامل معها باعتبار تحرير الألفاظ الدقيقة للأحاديث! هذا جيد، ولكن لا تكون القضية هي قضية ارتباط بشرح علمي تفصيلي فقط، هذا جيد ولكنه لا يكفي؛ لا بد أن نعتبر أحاديث النبي ﷺ وهديه شفاء، أن نتعرف على الأحاديث النبوية أو تتصل بالأحاديث النبوية؛ لتعرف هدي القدوة، لتعرف هدي المصطفى ﷺ خاصة الأحاديث التي في مثل الرياض الصالحين: الأحاديث المتعلقة بالسلوك، بالتزكية، بالدار الآخرة، بأحوال المصطفى ﷺ.

هذه السلسلة وهذه المادة هي مادة للتداوي؛ ليروى شيء من الشوق إلى النبي ﷺ، ولنقتبس من نوره عليه صلاة الله وسلامه: ماذا كان يفعل؟ كيف كان يُعلم؟ إلى ماذا كان يدعو؟ ما الذي كان يشغل بال النبي ﷺ تجاه أمته؟ كيف كان يُصلح؟ كيف كان يُضحّي لدين الله سبحانه وتعالى؟ إلى آخره من

المعاني التي هي أنوار نحتاجها في زماننا هذا. وأنبه هنا إلى قضية مهمة جداً قبل أن نبدأ بهذه الأحاديث: وهي أن حُسن الاقتداء بالنبي ﷺ يحتاج إلى هداية، ويحتاج إلى فقه؛ يعني ليس كل من علم حديث النبي ﷺ فقد رزق الاقتداء به، أو وُفق لمعنى الاقتداء به؛ لأن هناك من ينظر إلى سنة النبي ﷺ دون أن يفقه مراتب الهدي النبوي، مثلما نتكلم عن مراتب الأمر والنهي والخبر.

القرآن نفسه نقول القرآن هو كلام الله ﷻ، لكن فيه أعظم آية وأعظم سورة، وكذلك هدي النبي ﷺ ليس كله على مرتبة واحدة؛ فهناك ما هو أعظم شيء في هديه، وهناك ما هو دونه، وكله مهم. فالقضية ليست مجرد أن تعرف أحاديثه أو تحفظها، وإنما القضية في كيف تفقه الهدي النبوي؟ وكيف تعطي هذا الهدي أهميته بقدر أهميته في ميزان النبي ﷺ؟

هذه قضية مهمة وخطيرة جداً في الاقتداء بالنبي ﷺ، وهي من المعاني التي تحتاج إلى تحديد، وإلى تثبيت في الواقع. الواقع اليوم يحتاج إلى علم هادٍ -علم يهدي-، ولا يحتاج إلى علم يكون عبارة عن كثرة زائدة.

نحن اليوم في المجلس الثاني من مجالس أحاديث رياض الصالحين، ولا زلنا في الباب الأول فيه عن النية واستحضارها، قال فيه الإمام النووي -رحمه الله: باب الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية. نبدأ بالحديث السابع.

الحديث السابع: نظرة الله ﷻ لعباده.

وهو قول النبي ﷺ، أو كما روى النووي -رحمه الله تعالى- فقال: عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" [رواه مسلم].

هذا الحديث هو حديث عظيم جدًا، يبين لنا المحل الذي ينبغي عليك أن تعتني به وتهتم به؛ لأنه هو محل نظر الله - سبحانه وتعالى. الله - سبحانه وتعالى - لا ينظر إلى أجسامنا ولا إلى صورنا. شعرك صار طويلًا قليلًا، وجهك فيه مشكلة، وللنساء - مثلاً: والله جمالك ناقصٌ قليلًا، عندك حساسية في الوجه، وترين أنه قد ضاع مستقبلك الأول والآخر... وإلى آخره! هذا ليس محل نظر الله - سبحانه وتعالى، وإن كان هذا محل نظر الناس، وكلما تدنت معايير الناس؛ تعلق أنظارهم بالصور والأجسام. هذه معادلة دائمة: متى ما ارتفع معيار الإنسان؛ نظر إلى الحقائق وإلى المعاني وإلى الشيء الذي يعيش لأجله الإنسان، وإذا انخفض معيار الإنسان؛ انخفضت معاييرهِ: فنظر إلى الشكل، الصورة، الرتبة الاجتماعية، الوظيفة، مقدار الدخل المالي. وبناءً على ذلك لما يأتي الأنبياء إلى أقوامهم، ويدعوهم؛ يستجيب لهم بعض الضعفاء، الآخرون لا يستجيبون. لماذا؟

﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء ١١١]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف ٣١].

القلب:

أما الله - سبحانه وتعالى - فإنه ينظر إلى القلوب وإلى الأعمال، هذا هو محل نظر الله - سبحانه وتعالى؛ ولأجل ذلك كما أنك تعتني يوميًا بمظهرك، بالحد الأدنى على الأقل كأن تغسل وجهك وأسنانك وتهنئهم ملابسك وشعرك... فكما أنك تهتم يوميًا بالشيء الأساسي في مظهرك وتخشى من العيب فيه؛ فيجب عليك أن تعتني يوميًا بقلبك - هذا إذا كنت تريد أن تقتدي بالنبي ﷺ وتحفل بأحاديثه يوميًا.

تنظر إلى قلبك، كيف تنظر إلى قلبك؟ ليس المقصود أنك تشتري أجهزة تكشف لك عن النبضات، ولا عن شيء، وإنما تنظر إلى قلبك من حيث ما يحمله من المعاني، وأعظم معنى ينبغي أن تتفقدّه يوميًا

في قلبك هو معنى مراقبتك لله واستحضارك لعبوديتك له، ولاطلاعك عليك، ولصيرورتك أو مرجعيتك له - سبحانه وتعالى - في الآخرة.

فكما أن الناس تنظر في أجسامها يوميًا، فيجب عليها أن تنظر في قلوبها، لو قال قائل: ما هو هذا النظر؟ ما طبيعة هذا النظر؟ أقول لك أول شيء وأهم شيء هو النظر إلى محل يقينيك باطلاع الله ﷻ عليك وعبوديتك له، ومدى استحضارك لأنك ستعود إليه أو لمعنى رجوعك إليه - سبحانه وتعالى - في الدار الآخرة. فإن لم تفعل ذلك؛ فاعلم أنك وإن لم تفعله فإن الله ﷻ سينظر إلى قلبك، وإذا نظر إلى قلبك؛ ألا تستحي منه - سبحانه وتعالى - أن ينظر إلى قلبك؛ فيرى فيه الغفلة، وذكر كل شيء إلا هو - سبحانه وتعالى -؟ وامتلاء هذا القلب بمعاني محبة البشر، وغياب معنى محبة الله ﷻ؟ وأن يرى - سبحانه وتعالى - في قلبك الخوف من الناس، ولا يرى في قلبك الخوف منه؟ وأن يرى في قلبك شدة التعلق بغيره، ولا يرى في قلبك هذا التعلق - سبحانه وتعالى -؟ ألا يستحي الإنسان - وهو يقول أنه مسلم - من نظر الله ﷻ إلى قلبه ثم لا يكون قلبه ممتلئًا بمعاني الحب لله، والخشية له، والتوكل عليه والرضا عنه، والرضا به - سبحانه وتعالى -؟

هذا هو الأمر الذي ينبغي أن تفعله يوميًا، وهو أن تنظر إلى قلبك: هل قلبك هذا هو الذي ستشرف به حين ينظر الله ﷻ إليه أم لا؟

العمل:

ثم، ما الأمر الآخر الذي ينظر إليه الله سبحانه وتعالى؟ هو العمل.

وأتى ذكر العمل بعد القلب؛ لأن العمل لا يزكو إلا إذا زكى القلب، والدليل على ذلك كما تعلمون حديث النبي ﷺ: "أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ" [متفق عليه].

وبالتالي عملك هذا الذي تعمله هو محل نظر الله - سبحانه وتعالى - ومحل اطلاع منه - سبحانه وتعالى؛ ولذلك إذا كنت في اليوم والليلة لديك من يراقب عملك: افترض أنك موظف في شركة ويطلب منك تقرير في نهاية اليوم، أو نهاية الأسبوع، أو اجتماع للإنجازات؛ فاعلم أن الله - سبحانه وتعالى - يطلع على عملك أيضاً، وهذا الاطلاع غير اطلاع البشر؛ فهم لا يدركون حقيقة ما في القلوب؛ فقد تعمل عملاً متقناً في الظاهر؛ ولكنك تعمله لتتخلص من شر إنسان، أو لتتقرب إلى إنسان، بينما الله - سبحانه وتعالى - لا يقبل من العمل إلا ما كان طيباً، ولا يكون طيباً إلا إذا كان خالصاً، ولا يكون خالصاً إلا باستقرار معنى الإخلاص في القلب، والله ﷻ يرى هذا الإخلاص، والله ﷻ يطلع على هذا الإخلاص، والله ﷻ يعلم هذا الإخلاص.

فلأجل ذلك يا أحبتي الكرام جميعاً، إذا كنا نعتني بأحاديث النبي ﷺ وبهديه؛ فاعلم أن من أعظم هدي المصطفى ﷺ، ومن أعظم السنن التي حرص على أن يوصلها إلى أصحابه، وإلى أمته هي: العناية بالقلوب .

النبي ﷺ حرص أن يوصل هذا المعنى إلى أمته حرصاً شديداً، ليس في حديث واحد أو حديثين بل تكرر ذكر الأحاديث في نفس المعنى؛ لو كنا في زمن النبي ونحضر المجلس الذي فيه هذا الحديث: قال النبي ﷺ "التقوى ها هنا - وأشار إلى صدره -..." يشير النبي ﷺ كأنه يريد أن يُعَلِّمَ التقوى "ها هنا". فكأنك تبحث عن التقوى في أعمالك، "التقوى ها هنا"، فهي داخل نفسك! لذا دعك الآن ماذا يصنفك الناس، وماذا يقولون عنك، ما الذي في قلبك فعلاً؟ "التقوى ها هنا".

ولذلك نقول النبي ﷺ حرص حرصاً تاماً على أن يربي أصحابه على مركزية القلب وخطورته وأهمية أن تراقب ما في قلبك، وأن تصححه، وأن تعلم أنه محل نظر الله ومحاسبته - سبحانه وتعالى .

أهم معنى ينبغي أن يُحمل في القلب من حيث المتابعة اليومية هو مدى يقين هذا القلب بأن الله ﷻ حق، وأنه مُطَّلَع على الإنسان، ويعلم ما في نفسه، ومطلع على عمله، وما الذي يحمله هذا القلب من معاني العبودية لله. وما هي عبودية القلب لله؟ إخلاص، وتوكل، وخشية، ويقين، ومحبة، وإنابة، ورجاء، هذه كلها عبوديات قلب؛ ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق ٣٣].

الحديث الثامن: القتال في سبيل الله ﷻ.

عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري -رضي الله تعالى عنه، قال: "جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإنَّ أحدنا يُقاتِلُ غَضَبًا، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ، قَالَ: وما رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا، فَقَالَ: مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" [متفق عليه]

هذا الحديث يبين أن الإنسان وإن اجتهد في عمله ولو كان هذا العمل في ظاهره نصرًا للدين، ولو كان هذا العمل في ظاهره تضحية، فإنه لن ينفع ولن يُكتب عند الله، ولن يكون محل جزاءٍ وثوابٍ عند الله -سبحانه وتعالى- إلا إذا كان يريد الإنسان به المعنى الذي يحبه الله.

ما المعنى الذي يحبه الله ﷻ في القتال تحديدًا؟ المعنى الذي يحبه الله ﷻ في القتال تحديدًا أن تكون كلمة الله هي العليا، فالذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله ﷻ.

أما الرجل يقاتل شجاعةً ويقاتل حميةً ويقاتل رياءً أو لأجل الغنائم أو عصبيةً إلى قبيلة، إلى وطن معين، فإذا كان الإنسان لا يحركه إلا القتال إلى وطن معين، ولا يُنهضه معنى الأمة الإسلامية والعمل في سبيل الله ﷻ والقتال في سبيل الله ﷻ، وإنما ينهضه ويحركه القتال في سبيل الوطن فقط، ويعتقد أن من عادى الوطن؛ فقد استحق القتال، ومن صادق الوطن؛ فقد استحق الولاء والنصرة، وهذا المعنى الذي يحركه،

ولا يعتني بأمر المسلمين، ولا يغضب لأمة الإسلام، فهذا داخل في هذا الحديث! "يقاتل رياءً أو حميةً أو شجاعةً" أو سمّها ما شئت.

نحن في زمن فيه أشياء تزامم النيات الصالحة تجعلها داخل أطر غير صحيحة، وتجعلها هي المعيار، فالوطن حُبّه أمر طبيعي، فالإنسان يعيش في وطن يحبه، ولكن الوطن نفسه ليس هو المعيار للولاء والبراء.

فالمعيار هو ما كان لله، وفي سبيل الله ﷻ ولرفع كلمة الله ﷻ، كما قال النبي ﷺ: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله"؛ ولذلك مثل ما يجري الآن في غزة أو في غير مآسي المسلمين، يقول البعض: ما دام إن المشكلة ليست في وطني لا يعني! لكن إن تجرأ واحد وأساء إلى وطني بشيء سيقوم الواجب الوطني، وستصطف الجيوش لردع المفسد المجرم الذي أساء إلى وطننا المقدس! أما أوطان المسلمين التي تجري فيها المآسي، وتسَلَّطَ عليها أعداء الله ﷻ - حتى لو استعملوا كلمات الحرب الدينية - ، فهذا لا يعنيه! ثم إذا مات من هذا حاله يقولون عنه الشهيد والذي فعل وفعل. لا!

الشهيد حقاً هو الذي قاتل في سبيل الله ﷻ، ولتكون كلمة الله ﷻ العليا. هذه قضية من القضايا الخطيرة جداً التي ينبغي على المسلمين أن يعتنوا بها وأن يهتموا لها، وأن يتفطنوا إليها.

الحديث التاسع: القتال بين المسلمين.

عن أبي بكرة نُفيع بن الحارث الثقفي -رضي الله تعالى عنه، أن النبي ﷺ قال: "إِذَا تَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ" [متفق عليه] هذا الحديث له علاقة بالنية واضحة.

فلو أن إنسانا مقتولا، ولكنه في النار، يعني ما أفضى إلى الدار الآخرة وهو قاتل وإنما أفضى إلى الدار الآخرة وهو مقتول، معناه أنه تألم، معناه أنه أُصيب، ولكنه في النار! وذلك لأن قتله هذا كان في

سياق قتاله مع إنسان مسلم آخر، وكان هو في داخل قلبه -الذي هو محل نظر الرب- يريد أن يكون قاتلاً، وحاسبه الله -سبحانه وتعالى- باعتباره كان يريد أن يكون قاتلاً، باعتباره متجراً على أن يكون قاتلاً. فالصورة الظاهرة مقتول، والحساب على معنى أن يكون قاتلاً، هذا هو محل نظر الله ﷻ، وهذا هو السبب في الحساب.

الحديث العاشر: صلاة الجماعة.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ: "صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ وَبَيْتِهِ بضعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يَنْهَازُهُ إِلَّا الصَّلَاةَ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحِسُّهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ثُبِّ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُجْدِثْ فِيهِ". [متفق عليه]، وهذا لفظ مسلم. قال النووي -رحمه الله- وقوله ﷺ "ينهزه" هو بفتح الياء والهاء وبالزاي أي يُخرجه ويُنهضه .

موضع الشاهد من الحديث هو أنه "لا يريد إلا الصلاة"، وأيضًا "لا ينهزه إلا الصلاة"، فهذا الحديث ساقه النووي هنا للدلالة على أهمية النية وهو أيضًا يدل على فضل الجماعة، لكنه اختاره هنا ليقول لك: أنك إذا خرجت إلى المسجد أو إلى غيره من الأعمال؛ فانتبه لا تخرج إلا لأجل هذا العمل الذي تريد به وجه الله ﷻ، ولا تنو في قلبك إلا هذا العمل.

مثلاً أنتم الآن طلاب في مركز، وهذا المركز يقدم برامج دعوية، وعلمية، وشرعية، وعن الإيمان والصلاح، والإصلاح، وما إلى ذلك، ما الذي يَنْهَازُك حين تخرج إلى المركز؟ هنا يأتي الكلام في هذا الحديث. هل أنت حين تخرج يوميًا أو في وقت خروجك لهذا المركز.

هل الذي أخرجك من جهة المعنى الداخلي هل هو معنى أن تتعلم دين الله ﷻ؟ أن تلتقي بصحبة صالحة؟ أن تتذكر ما يحبه الله ﷻ؟ أن تمشي في طريق ترجو في مستقبله أن تكون صالحًا مصلحًا هاديًا مهديًا؟ إن كان كذلك؛ فهنيئًا لك.

وإن كنت تخرج؛ لأنه في إزعاج في البيت، فأنت تريد تنفك من إخوانك الصغار، وتأخذ لك وقتًا مستقطعًا تسعد فيه -ولاحظ الآن، هل هذه الفكرة محرمة؟ أقصد فكرة أنك تنزعج؛ فتخرج، هل هذا شيء مُحَرَّم؟ ليس مُحَرَّمًا، فضلًا عن من يخرج إلى مجالس الخير، وهو يريد معنى محرمًا، فهذا أيضًا شر على شر - لذلك إذا أردتَ أجر شيء معين من الأعمال؛ ففتش في قلبك ونفسك قبل الخروج إلى هذا العمل بحيث لا تريد إلا وجه الله ﷻ بهذا العمل جيد؛ فالخروج إلى المسجد، ما الذي ينبغي أن تفتش على نفسك فيه؟ الصلاة، قال "لا يريد إلا الصلاة".

أنتم لا تدركون مقدار الفضل في هذا! الله ﷻ يراك وقد قطعت أشغالك، أو قمت من نومك، ومشيت هذه الخطوات، وينظر الله ﷻ إلى قلبك، وهو يرى أنه ليس في قلبك إلا الصلاة! أنت خارجٌ تصلي لله، نقطة. حين يرى الله ﷻ منك ذلك، يا الله ﷻ لو تعرف مقدار الحسنات التي يكتبها لك! لو تعرف مقدار الخير الذي يكتبه لك! يكون بكل خطوة حسنة، وتُكفّر سيئة، والملائكة تصلي عليك، وتغدو إلى الجنة، وتروح، ويعني الحسنات والبركات والخيرات وفضل الصلاة، وتكفير السيئات. لا تسأل، لا تسأل!

سؤال: بالأمر التفكير السريع المجرد أيهما أصعب أن تنوي معنى الصلاة والله، أم أن تقوم من نومك، وتذهب وتتوضى وقد يكون الماء باردًا، وتخرج، وتمشي إلى المسجد؟ أيهما أصعب؟ الثانية؛ لأن الأولى هي عبارة عن عمل قلبي، تتذكر فقط.

حسنًا، في الواقع أيهما أصعب؟ عند كثير من الناس الأصعب هي النية؛ فقد يسهل عليه أن يذهب ويجيء، وكذا وإلى آخره، وتكون أسهل ما يكون بالعادة، أما أن يستحضر هذا المعنى فنحن يجب إنه نتذكر دائمًا هذا المعنى.

الحديث الحادي عشر: فضل الله ﷻ.

عن أبي العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب -رضي الله عنهما- عن رسول الله ﷺ، -قبل أن نكمل الحديث، أود أن أقول أنه في هذه السلسلة إن شاء الله في بعض الأحيان بما ييسر نلتقط واحدًا من الصحابة، ونقف معه، ونحدث عن سيرته، وإلا فالأصل إن هذه السلسلة ليست لسير الصحابة، لكن قد نلتقط بعض الالتقاطات بعض المواقف، ونتركها بما ييسر الله سبحانه وتعالى.-

عن ابن عباس بن عبد المطلب -رضي الله عنهما-، عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه -تبارك وتعالى- قال: " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً " متفق عليه.

هذا الحديث حديث مهم في بيان أهمية النية والعزيمة والإرادة في الخير، وأن الله -سبحانه وتعالى- لرحمته ولفضله؛ فقد جعل إمكان الوصول إلى الحسنات الكاملات بالنية ممكنًا أو حاصلاً، أو سهلاً، أو ميسراً، بل وجعل من أبواب الحسنات: ترك السيئات! يعني أنت الآن تعمل عملاً صالحاً؛ تثاب عليه، لكن أن تثاب على ترك العمل السيء، هذا عجيب بفضل الله -سبحانه وتعالى- وهو بالنية الحسنة والصالحة.

وهو حديث طويل. عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "انطلق ثلاثة نفرٍ ممن كان قبلكم، حتى آواهم المبيت إلى غارٍ فدخلوه، فأنحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، قال رجلٌ منهم: اللهم كان لي أبوانِ شيخانِ كبيرانِ، وكنت لا أغني قبليهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلبُ الشجرِ يوماً، فلم أرخ عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغني قبليهما أهلاً أو مالاً -أي لا أسقي اللبن الذي آتى به من المواشي التي أحلبها أحداً قبلهما- فلبثت، والقذح على يدي، أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبيّة يتضاغون عند قدمي -أي أنهم جائعين-، فاستيقظا، فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه. قال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم، كانت أحب الناس إلي -وفي رواية: كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء- فأرذتها على نفسها، فامتنعت مني، حتى ألفت بها سنة من السنين -يعني جاءتها سنة فيها احتياج مادي؛ لتغير ظروف الزمان- فجاءتني فأعطيتها عشرين ومئة دينارٍ على أن تخلي بيني وبين نفسيها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها -وفي رواية: فلما قعدت بين رجلين- قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه -أي: الزواج-، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراً، وأعطيتهم أجرهم غير رجلٍ واحدٍ ترك الذي له وذهب، فتمرت أجره -أي نميته- حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبدالله، أد إلي أجري، فقلت: كل ما ترى من أجرك: من الإبل، والبقر، والغنم، والرقيق. فقال: يا

عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَأْفَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ؛ فَاَنْفَرَجَتِ الصَّحْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ" متفق عليه.

ما يحتاج تعليق الحديث، ما يحتاج تعليق! حديث عجيب عظيم وفي فوائد كثيرة يمكن أن تستنبط منهم، لكن الفائدة التي لأجلها ساق الإمام النووي هذا الحديث، ما هي؟ "إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك"، يعني ما كان الدعاء: "اللهم إن كنت تعلم أنني تعبت في هذا العمل" ولا "اللهم إن كنت تعلم أنني اجتهدت في هذا العمل اجتهدًا كبيرًا"، ولا "اللهم إن كنت تعلم أن زهرة شبابي ذهبت في هذا العمل"، لا. "اللهم إن كنت تعلم أنني فعلته"... ابتغاء وجهك.

يعني حين عملتُ هذا العمل، فأنا لم أُرِدْ بهذا العمل إلا ما عندك يا ربي، وأنت يا الله تعلم ما في القلوب؛ فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك حقًا لأجلك يا ربي، وابتغاء وجهك؛ فافرج عنا؛ فكانت تنفرج، ثم تنفرج، ثم تنفرج، وهذا يدل على خطورة فضل ومكانة الإخلاص عند الله - سبحانه وتعالى، وأنه عند الله ﷻ بمكان عظيم.

فوائد:

وأما الفوائد الأخرى فهي كثيرة جدًا، منها:

(١) أن الأعمال الصالحة هي سبب من أسباب إجابة الدعاء إذا توسلت إلى الله ﷻ بها، وخاصةً عند الشدائد والكربات إذا وقع الإنسان في شدة معينة، أو في كربة معينة، لعله يفتش عن أعماله الخالصة لوجه الله ﷻ فيتوسل إلى الله ﷻ بها "اللهم إن كنت تعلم أنني فعلت هذا العمل لوجهك؛ فافرج عني أو فاكشف الكربة" إلى آخره.

(٢) من الفوائد كذلك: فضل وقيمة ومنزلة بر الوالدين عند الله - سبحانه وتعالى، وخاصة حين يكون الوالدان كبيرين في السن كما قال أولهم: "اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران"، هذا باب عظيم من أبواب التقرب إلى الله - سبحانه وتعالى .

(٣) وفضل العفاف، أو ترك الشهوة المحرمة، وانتزاع النفس منها، ابتغاء ما عند الله - سبحانه وتعالى، وفضل الأمانة ورعاية الحقوق. ممكن واحد مثلاً مُقصر في هذا الباب، يقول لك: الحمد لله أنا طالب علم، أو داعية، أو عندي الحمد لله أعمال كثيرة في الخير؛ فقد يتهاون في باب الحقوق مثلاً. ولكن لا! باب الحقوق باب عظيم جداً، أمانة أموال الناس، رعايتها، بل هي من علامات الإيمان الكبيرة أصلاً. (٤) ومن الفوائد: أهمية القصة في استخراج الدروس.

هذا حدث حقيقي، فهذه القصة حقيقية، وكل القصص التي قصها الله ﷻ في القرآن هي قصص حقيقية، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف ١١١]. لاحظوا، أنا ذكرت بعض الفوائد، لكن ممكن أن يكون لكل واحد في ذهنه فوائد من الحديث، مجرد إنك تسمع الحديث لأنه قصة، قصة عظيمة وعجيبة .

(٥) ومن الفوائد كذلك: أن الدعاء الذي يدعو الإنسان ربه فيه، لا بأس أن يكون مفصلاً في الأحوال: يعني هنا في الدعاء، فيه تفصيل: "وكنتم لا أعقب قبلهما أهلاً ولا مآلاً؛ فنأى بي طلب الشجر يوماً..." وبعدها قال أنه رجع وأمسك القدح بيديه، وجلس إلى الفجر، والأولاد يتضاغون - يعني يتباكون - عند قدميه، ويصيحون عند قدميه فلم يقدم عليهم، هذا كله في الدعاء ! الآن هذا مثل دعاء زكريا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم ٤]. فلا بأس أنت تذكر في دعائك تفاصيل، خاصة إذا كنت محتاجاً - يعني إن كان دعاء حاجة، - مثل هذه :دعاء كربة، دعاء شدة، هذه فائدة مهمة جداً أيضاً، تفيد الإنسان في سلوكه إلى الله - سبحانه وتعالى.

والفوائد في هذا المعنى أيضاً في هذا الحديث كثيرة، والعلماء حتى استخرجوا منه بعض الفوائد الفقهية، وبعض الفوائد المتعلقة بالأحكام، ولكن ليس هذا موضع ذكرها.

هذا الحديث هو نهاية الباب الأول، فنسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يتقبل منا ومنكم صالح العمل، وأن يرزقنا وإياكم حسن الاهتداء والاقتداء بهدي النبي ﷺ.

اتباع النبي ﷺ:

هذه الأحاديث كان الصحابة يسمعونها من النبي ﷺ مباشرة! نحن نقول الآن: "عن عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-"، ثم نقول "متفق عليه" يعني البخاري ومسلم، ونقول أخرجه البخاري، فأخرج بإسناد إلى عبد الله بن عمر إلى النبي ﷺ، خير الصحابة ومنهم عبد الله بن عمر جالسين عند النبي ﷺ، وهو يحدثهم هذا الحديث، ويقول لهم: "انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم..." الآن أنا قرأت قراءة نوعاً ما تفسيرية ألقيت الحديث إلقاءً تفسيرياً، يعني تستطيع أن تستوعب من خلال الإلقاء.

ما بالكم لما تسمعون من النبي ﷺ مباشرة؟! كيف وأنت ترى النبي ﷺ وهو يحدثك؟! كيف ستستفيد وأنت ترى تعابير وجه النبي ﷺ وتعرف.

إذن فاتك السماع المباشر منه؛ فلا تقصر في العناية بسنته ترى السنة فيها بركة وخير كبير. ومرة أخرى نرجع نقول "السنة السنة السنة"، ومن الظلم الشديد جداً جداً أن تختصر أو تختزل السنة في بعض الأعمال بين قوسين "المستحبات" التي تكون في الهدي العملي اليومي، المتصل ببعض ما يعرف فقها بالسُنن: يعني مثلاً سُنن الصلاة، سنن الوضوء، سُنن كذا، أو حتى بعض السنن المتعلقة بالأمور المتصلة بمختلف الأحوال اليومية لكن ليست الواجبة. ركزوا معي؛ فهذه فائدة مهمة جداً.

حين نقول "سنة النبي ﷺ" فأولى وأهم ما يدخل فيها: هي الأمور الكبرى في الدين، هي الفرائض الكبرى، ولا تظن أنه حين نقول "السنة" أنها هي الأمور غير الواجبة! وإنما السنة أول ما يدخل فيها: الأمور الواجبة الكبيرة العظيمة، مدارات الدين، مركزيات الإسلام، ما حرص عليه النبي ﷺ دائماً، ما كرهه، ما أكَّده، ما نادى إليه، ما دعا إليه، ما ربَّى عليه أصحابه، هذه السنة، أول ما تأتي السنة فهذه السنة. كما قلت من التصورات الخاطئة: أن يُقال فلانٌ متبع للسنة أحياناً، ماذا يقصدون؟ متبع للسنة يقصدون أنه في بعض أفعاله الجزئية هو مُتَّبِع.

إذن هذا اتباع سنة أم لا؟ اتباع سنة، ولكن أحياناً يكون اتباعاً منقوصاً، أو فيه فقه خاطئ؛ فأحياناً تُعطى هذه الأعمال قدراً كبيراً من العناية، ولا يُعطى ما هو أعظم منها ما أعطاه النبي ﷺ من الاهتمام والعناية، مثلاً: الدعوة إلى الله ﷻ، ونشر الدين وإعلاء كلمة الله ﷻ، ونصرة الإسلام، وما يدخل في فلك ذلك من المعاني.

يمكن الإنسان يظن أنه لما تقول السنة، ف يعني أحياناً تتجاوز هذه القضية، أنها نعم من الأمور المهمة وكذا. لا، إن كنت تريد أن تقتدي بسيد المرسلين فعلاً، وأن تسير على سُنَّته؛ فمن العناوين الكبرى لسنة المصطفى ﷺ - يعني طريقته العملية التي عاش لأجلها - هي نصرة الدين، والدعوة إلى الله ﷻ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ [الأحزاب ٤٥] ما بعد أرسلناك هذه هي السنة ﴿شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب ٤٦، ٤٧].

هذه السنة "داعياً إلى الله بإذنه". تريد السنة؟ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف ١٠٨]، ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة ٢]، هذه السنة: العناية بالقرآن، العناية بالتزكية، العناية بأعمال القلوب، نصرة الدين، التضحية، الجهاد في سبيل الله ﷻ، هذه السنة.

قيام الليل، الخشية في الفرائض هذه السُّنة، وأيضًا بطبيعة الحال، السواك وغير ذلك من الأعمال التي هي ليست واجبة ولكنها سُنَّة، وكان يحرص عليها النبي الله ﷺ. فإذا أعطيت السنن الكبرى حقها؛ كان إعطاؤك للسنن الصغرى، والتزامك بها يعطيها قيمة حقيقية حيث تكون تابعة لا مستقلة. أما إذا لم تُعطِ السنن الكبرى حقها، وتمسكت بالصغرى، كان هذا التمسك فيه إشكال، وفيه خلل مع أن الله ﷻ لا يضع أجر من أحسن عملاً -ولو كان عملاً صغيراً-.

الخاتمة:

نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يصلي ويسلم على عبده ورسوله محمد، نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يؤتية الوسيلة، وأن يبعثه المقام المحمود الذي وعده، ونسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعلنا من أنصار دينه، وأن يجعلنا ممن يرعى أو يراعى أو يقوم في أمة محمد ﷺ فيما كان يعتني به النبي ﷺ تجاه هذه الأمة المباركة التي كان النبي ﷺ يحمل همها، ونسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجمعنا مع نبيه ﷺ عند حوضه، ونسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجمعنا به في الفردوس، وأن يحيينا على سنته وأن يمتينا على سنته وأن يجعلنا من الحملة لميراثه، ومن أهل الفقه فيه، ونسأل الله - سبحانه وتعالى - أن ينتقم ممن يتسلط على أمة نبيه محمد ﷺ بالظلم والشدة والمشقة، نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن ينتقم منهم، وأن يضيق عليهم.

وقد دعا النبي ﷺ هذا الدعاء، فقال: "اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ". اللهم آمين اللهم آمين. اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك محمد.